حياة الصعاليك

وأشهر شعرائهم

محمد ناصف

شبكة الألوكة
www.alukah.net

حياة الصعاليك
وأشهر شعرائهم

محمد ناصف

باحث لغوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالميـــــن والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وبعد

نقل ابن قتيبة في الشعر والشعراء [1] عن عروة بن الورد الشاعر الجاهلي قوله:

لحى الله صـــعلوكًا إذا جـــنّ ليلـــه	مصافى المشاش آلفـــا كـــلّ مجـــزر
يعدّ الغنى مـــن دهـــره كـــلّ ليلـــةٍ	أصاب قراها مـــن صـــديقٍ ميسّـــر
ينـــام عشـــاء ثمّ يصـــبح قاعـــدًا	يحتّ الحصى عـــن جنبـــه المتعفّـــر
ولله صـــعلوك صـــفيحة وجهـــه	كضوء شـــهاب القـــابس المتنـــوّر
مطـــلّ علـــى أعدائـــه يزجرونـــه	بساحتهم زجر المنـــيح المشـــهّر[2]

ففي هذه اللوحة الفنية يصور الشاعر عروة بن الورد إحدي صور حياة الصعاليك وهو الرجل الخامل الكسول إذا حل عليه الليل يقوم بجمع العظام اللينة من مخلفات المجازر، وغاية مناه ومبتغىٰ غناه أن يجد طعامه عند صديق ميسور الحال...إلخ

ووفي هذه الوريقات أتحث عن: حياة الصعاليك وأشهر شعرائهم

وقد جعلنا كتاب (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف) مرجع أساسي نعوِّل عليه، مع التعريج علي كتب أخرىٰ تذكر في مواضعها.

وقد عزمت وتوكلت علي الذي بيده الأمر وشرعت في كتابة بحث صغير وقد جعلته من تمهيد وموضوع، والتزمنا الاختصار الغير مخل وعدم تعدد فروع البحث.

---

(1) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء، ت: أحمد محمد شاكر ،دار المعارف- القاهرة صـ(2/ 675)

(2) راجع المعاني مجملًا من كتاب فيض الخاطر لأحمد أمين ج5 الناشر: مؤسسة هنداوي صـ 30

ويشتمل التمهيد علي مسائل وهي

- المبحث الأول: تعريف الصعلكة
- المبحث الثاني: طوائف الصعاليك في الجاهلية

ثم نشرع في عرض الموضوع في عدة مسائل

- المبحث الأول: موضوعات شعر الصعاليك
- المبحث الثاني: الظواهر الفنية في شعر الصعاليك (خصائص شعر الصعاليك)
- المبحث الثالث: أشهر شعراء الصعاليك
  - المسألة الأولىٰ: ترجمة عروة بن الورد
  - المسألة الثانية: ترجمة الشنفري (ثابت بن أوس)
  - المسألة الثالثة: ترجمة تأبط شرًّا (ثابت بن جابر)

وعلي الله التُّكلانُ

التمهيد

المبحث الأول: تعريف الصعلكة

التصعلك في اللغة [1]

قال ابن منظور في لسان العرب:

الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك؛ قال حاتم طيء:

غنينا زمانا بالتصعلك والغنىٰ ... فكلا سقاناه، بكأسيهما، الدهر

فما زادنا بغيا علىٰ ذي قرابة ... غنانا، ولا أزرىٰ بأحسابنا الفقر

أي عشنا زمانا [2]

فالصعلكة إذن -في مفهومها اللغوي- الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره ضامرا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم [3]

---

(1) انظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.يوسف خليف، دار المعارف، الطبعة الخامسة 2019م صـ (21-23)، وكتاب شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د.عبد الحليم حنفي، مطبوعات الهيئة العامة المصرية للكتاب صـ 17-39 ،وكتاب في تاريخ الأدب الجاهلي ، د.علي الجندي، الناشر: مكتبة دار التراث الطبعة: الأولىٰ صـ 438-444

(2) محمد بن مكرم أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ): لسان العرب، الحواشي:لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ه، صـ (10/ 455-456)

(3) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د.يوسف خليف» (ص22-23)

التصعلك في الاستعمال الأدبي:

تتردد هذه المادة في أخبار العصر الجاهلي وشعره بصورة واسعة، وتقابلنا كثيرا علىٰ ألسنة شعرائه ورواة أخباره، فنراها أحيانا تدور في هذه الدائرة اللغوية التي تحدثنا عنها، علىٰ نحو ما نرىٰ في بيت حاتم الطائي الذي يتخذ منه اللغويون موضوعا للاستشهاد علىٰ المعنىٰ اللغوي للكلمة، فالمقابلة في هذا البيت بين التصعلك والغنىٰ تدل في وضوح لا لبس فيه علىٰ أنه يستعمل التصعلك في معنىٰ الفقر [1]

إلا أن الدكتور يوسف خليف نقل كثيرًا من أدب العرب الجاهلي علي معنىٰ مغاير لمفهوم الفقر، حيث رجح معني لغوي، ومعني إجتماعي، راجعه[2]

ويقول الدكتور شوقي ضيف: ولم تقف هذه اللفظة فىٰ الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل علىٰ من يتجردون للغارات وقطع الطرق [3]

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د.يوسف خليف» (ص24)

(2) انظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.يوسف خليف صـ(24-61)

(3) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د.شوقي ضيف، دار المعارف – مصر الطبعة: الأولىٰ، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م، صـ(1/ 375)

المبحث الثاني: طوائف الصعاليك في الجاهلية

وهذا التقسيم من وجه نظر الدكتور شوقي ضيف والدكتور يوسف خليف، حيث قسما الصعاليك إلىٰ ثلاث مجموعات[1]

فقال ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات:

1- مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدىٰ وقيس بن الحدّادية وأبىٰ الطمحان القينىٰ.

2- ومجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السّليك بن السّلكة وتأبّط شرّا والشّنفرىٰ، وكانوا يشركون أمهاتهم فىٰ سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب.

3- ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا، وحينئذ قد تكون أفرادا مثل عروة بن الورد العبسىٰ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتىٰ هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف علىٰ التوالىٰ، أهـ....

---

(1) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) لشوقي ضيف (1/ 375)، والشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ليوسف خليف صـ(57-58)

موضوع البحث

المبحث الأول: موضوعات شعر الصعاليك

شعر الصعاليك أشبه ما يكون بمذكرات حياتهم من أحاديث ومغامرات عن طريق الأسلوب القصصي، وتشتمل علي دوافع الصعلكة كالفقر مثلًا والمخاطر التي تواجههم أثناء مزاولة صعلكتهم من تربص الأعداء والتشرد.

ويمكن لنا أن نلخص أبرز موضوعاتهم أو أغراضهم الشعرية في الآتي[1]:

أحاديث المغامرات

من الطبيعي -ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها "الغزو والإغارة للسلب والنهب"- أن يكون أكبر ما يُعنىٰ به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم؛ لأن هذه المغامرات هي "الحرفة" التي قامت عليها حياتهم، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم. وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته، المعجب بها، الفخور ببطولته فيها، أو بمقدرته علىٰ النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة.

وهم يصفون كل ما يحدث في هذه المغامرات، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك في وضع خطتها، إلىٰ أن تنتهي الغارة، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خطتهم، وحققوا أهدافهم، وهم يصفون، في أثناء ذلك، الطريق الذي سلكوه، ويتحدثون عن رفاق الغارة، ودور كل واحد فيها، وكيف نفذوا خطتهم، وكيف كانت آثارها في أعدائهم، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلىٰ قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا[2]

---

(1) انظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.يوسف خليف صـ(182-258)

(2) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ليوسف خليف» (ص182)

يصف الشنفرىٰ في قصيدته التائية غارة شنها إلىٰ بني سلامان مع رفاقه الصعاليك، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين يقتحمون الصعاب غير خائفين وهائبين[1]

وباضعَةٍ حُمر القِسِيَّ بَعَثتُها ... وَمَن يغزُ يغنَم مَرَّةً وَيُشَمت
خرجنا مِنَ الوادي الذي بَينَ ... وَبَينَ الجَبا هَيهاتَ أنشَأتُ
أَمَشَّي عَلىٰ الأرض التي لن ... لأنكي قوماً أو أصادِفَ
أَمَشَّي علىٰ أين الغزاةِ وَبُعدَها ... يُقَرَّبُني مِنها رواحي وَغُدوتي

وكذلك يصور أسلحتهم المعدة للقتال ويبين أن في جعبته سهام متهيئة للقتال بهمة حامليها، والسيوف القاطعات الماضيات كأنها قطع الماء في الغدير لمعاناً وبريقاً، وهي دائماً متحركة كأنها أذناب أولاد البقر حين رؤية أمهاتها وتنهل وتعل السيوف من دماء الأعداء[2]

لَها وَفضَةٌ مِنها ثَلاثونَ سَيحَفاً ... إِذا آنَسَت أولىٰ العَدِيَّ اقشَعَرَّتِ
وَتَأتي العَدِيَّ بارِزاً نِصفُ ساقِها ... تَجولُ كَعَيرِ العانَةِ المُتَلَفَّتِ
إِذا فَزِعوا طارَت بِأَبيَضَ صارِمٍ ... وَرامَت بِما في جَفرِها ثُمَّ سَلَّتِ
حُسامٌ كَلَونِ المِلحِ صافٍ ... جُرازٍ كَأَقطاعِ الغَديرِ المُنَعَّتِ
تَراها أَمامَ الحَيِّ حينَ تَشايَحوا ... لدىٰ مَنكِبَيها كُلُّ أَبيَضَ مُصلِتِ
تَراها كَأَذنابِ الحَسيلِ صَوادِراً ... وَقَد نَهِلَت مِنَ الدِماءِ وَعَلَّتِ

(1) ديوان الشنفرىٰ، جمع طلال حرب، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولىٰ 1996م، صـ 37

(2) بحث بعنوان (شعر الصعاليك أغراضه وخصائصه) للباحث ليو يونق دي نَّشر بالمجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات، المجلد الثالث، العدد الرابع والثلاثون بتاريخ 20 أغسطس 2022 م

وصف الأسلحة

ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلىٰ جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم، تلك القوىٰ الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثائة للشنفرىٰ حيث يقول:

فلا يبعدن الشنفرىٰ، وسلاحه ـحديد، وشد خطوة متواتر

والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي، سواء منها أسلحة الهجوم: السيف، والرمح، والقوس، والسهام، أو أسلحة الدفاع: الدرع، والترس، والمغفر. ويلح الشعراء الصعاليك علىٰ الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحا شديدا، وليس في هذا غرابة؛ إذ إنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة، وهي من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة. وفي أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورثته بعد موته سوىٰ درع ومغفر وسيف ورمح وجواد، فهذا كل ما يحرص عليه في حياته، وكل ما سيظل محافظا عليه إلىٰ آخر رمق منها حتىٰ يرثه ورثته من بعده[1]

وقد قسم الباحث ليو يونق دي واستفاض في بحثه المذكور آنفًا في مبحث (وصف الأسلحة) وقسمها أسلحة مادية، وأسلحة روحية من صـ (368 – 380) بالمجلة، المجلد الثالث.

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د.يوسف خليف» (ص195)

الحديث عن الرفاق

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم، يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها، ودور كل واحد منهم. وما أكثر ما نجد في شعرهم ألفاظ الرجل، والمنسر، والسربة، والمقنب، والفتيان، والأصحاب، والصحب، والقوم، وأمثال هذه الألفاظ التي تدل علىٰ الجماعة وما أكثر ما نجد في شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم [1]

كما حدث الشنفرىٰ في بائيته عن رفاقه الذين خرجوا معه في إغارة العوص، ويسيرون علىٰ الأقدام وصولا إلىٰ هدفهم وآداء من رفاقه في الإغارة رائعة واعتز بهم قائلا[2]:

خَرَجنا فَلَم نَعَهد وَقَلَّت ... وَصاتُنا ثَمانِيَة ما بَعَدها مُتَعَتَّبُ
سَراحينُ فِتيانٍ كَأَنَّ وُجوهَهُم ... مَصابيحُ أَو لَونٌ مِنَ الماءِ مُذهَبُ
نَمُرُّ بِرَهوِ الماءِ صَفحًا وَقَد ... ثَمائِلُنا وَالزادُ ظَنٌّ مُغَيَّبُ
ثَلاثًا عَلىٰ الأَقدامِ حَتّىٰ سَما بِنا ... عَلىٰ العَوصِ شَعشاعٌ مِنَ القَومِ

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف» (ص205-206)

(2) ديوان الشنفرىٰ، جمع طلال حرب، صـ 34

الحديث عن الوحوش [1]

نتيجة كثرة تنقل الصعاليك في الصحراء فكثر الوصف في شعرهم عن حيوان الصحراء ووحوشها ولا يكاد شاعر يخلو شعره عن الوحوش وتصوير تألفهم مع الوحوش.

يقول الشنفرىٰ حين أثر علىٰ قومه الوحوش المفترسة، ويجد فيهن كراما لا يذعن سرا ولا يخذلن جانيا، وتكيف النفس معهن

ولي دونكم أهلُونَ سِيْدٌ عَمَلَسٌ وأَرْقطُ زُهْلُولٌ وعَرْفاءُ جَيْأَلُ

هُمُ الْأَهْلُ لا مُستَودَعُ السِر ذائع لدَيْهم ولا الجَانِي جَرَّ يُخْذَلُ

وبعد ذلك يوضح هذه الألوفة والمشاركة، كأنه واحد منها:

تَرُودُ الْأَرَاوِىٰ الصُّحْمُ حَولي كانها *** عَدَارَىٰ عَليهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ

وَيَرْكُدْنَ بِالآصَال حولي كأنني *** مِنَ العُصْمِ أَدْفَىٰ يَنْتَحَىٰ الكِيحَ أَعْقَلُ

ويتحدث تأبط شـــرا عن إلف الوحوش له، أن الوحوش تعودت علىٰ رؤيته ليلا ونهارا ولم تجد منه أذىٰ ولم يجد منها مخاطر، فتحول الألف بينهما إلىٰ الود:

يبيتُ بِمَغنىٰ الوَحشِ حَتَّىٰ ألفنَهُ *** وَيُصبِحُ لا يحمي لها الذهر مرتعا

رَأينَ فتىٰ لا صَيدُ وَحشٍ يُهِمُّهُ *** فلو صـــافحت إنســـــًا لصافحنَهُ مَعا

علاوة عن تصوير إلفتهم مع الوحوش، فهناك أيضا تصوير رائع دقيق عن حياة الوحوش، فرسم لنا صخر الغي لوحة فنية في أدق صورها عن حمار وحش، يبدأ بصورتهما في روضة من أعشاب الصحراء، فيشبعان من الأعشاب، ثم تحركا إلىٰ مورد الماء، لما قربا إلىٰ الماء أحسا

(1) نقلته بالنص من بحث (شعر الصعاليك أغراضه وخصائصه) للباحث ليو يونق دي صـ 381

صائدا بيصدهما، فدارا والتفا حتىٰ بعدا عن الماء، وصعدا مرفتع الأرض وانحدرا فيظلان طول الليل في بحث الماء، لما جاء الضحىٰ ظنا أزمتهما زالت، ولكن في الحقيقة حلت أزمة جدية إليهما، إذ فوجئا بخيل الصائدين تشيم الرماح في صدوهما:

وَلَا عِلْجان يَنْتـابـان روضـــا *** نضيرا نبتُـه عُمًّا تُؤاما

كلا العلجين أصعرُ صيعريٌّ *** تخالُ نسيلَ متنيه الثّغاما

الحديث عن الفقر وآثاره [1]

لا شك في أن الفقر من أبرز الأسباب التي دفعت الصعاليك إلىٰ الصعلكة، كما تردد كثيرًا في أخبار عروة بن الورد من مثل كان عروة إذا أصابت قومه سنة شديدة.. وكان عروة إذا أجدب الناس.. خرج للغزو وبلغ من فقره أنه أضطر إلىٰ رهن امرأته علىٰ الشراب في بني النضير، لأنه لم يكن يملك غيرها، علىٰ الرغم من أنه كان عائداً من إحدىٰ غزواته.

ومن مثل روايتهم عن السليك أنه أصابته خصاصة شديدة فخرج علىٰ رجليه وحين مر الوالي سعيد بن عثمان بمالك بن الريب وهو يقطع الطريق قال له: ويحك يا مالك ما الذي يدعوك إلىٰ ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الإخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكفَّ عما تفعل وتتبعني؟ قال: نعم، أكف كأحسن ما كفَّ أحد.

وهكذا في أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم، ويكاد الفقر غلب علىٰ موضوع شعرهم، فكل شاعر من الصعاليك لم يخل شكو الفقر في شعرهم، وقد صوروا في شعرهم معاناتهم بالفقر وصراعهم لمقاومته بصور بيانية متنوعة، تأبط شراً حين يشكو من فقره قال:

قليلُ إدخارِ الزَّادِ إلا تَعلة... فَقَدْ نَشز الشرسُوفُ والتَصَق المعا

---

(1) نفس المرجع صـ 364 – 366

وصف الشاعر أنه لا يملك زادا لسد المجاعة إلا تعلَّةً، وبرزت أضلاعه من النحول والتصق أمعاؤه من الجوع.

ويقول عروة بن الورد عن فقره:

ومَن يَكُ مِثْلِي ذَا عِيالٍ ومُقْتِرًا... يُغَرَّرْ ويَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحِ

من أجل تعويل الأسرة يدفعه الفقر إلىٰ المغامرة بنفسه في كسب المعيشة، ويقول لامرأته أنه اعتزم قيام النهب والغزو لفرار من الفقر الأسود، ويفضّل الموت علىٰ أن يعيش في مذلة، فإن قتل فموته أرحم لها من عيش الذل، وإن أصاب غنيمة أغنىٰ امرأته وأولادها عن انزواء في البيت مترقبين عطاء المحسنين يقول:

ذَريني أُطَوِّف في البِلادِ لَعَلَّني ... أُخَلِّيكِ أَو أُغنيكِ عَن سوءِ مَحضِري

فَإِن فازَ سَهمٌ لِلمَنِيَّةِ لَم أَكُن... جَزوعاً وَهَل عَن ذاكَ مِن مُتَأَخِّرِ

وَإِن فازَ سَهمي كَفَّكُم عَن مَقاعِدٍ... لَكُم خَلفَ أَدبارِ البُيوتِ وَمُنظَرِ

الأعلم الهذلي حين يصف ما يعانيه عائلته من فقر فرض عليه تطلع إلىٰ ما في أيدي الأقارب يقول:

وذكرت أهلي بالعراء .... وحاجة الشعث التوالب

المصرمين من التلاد.... اللامحين إلىٰ الأقارب

آثار الفقر:

كما ذكرنا في تعريف الصعلكة سابقًا أن الصعاليك كلهم يتعانون بالفقر وضاق ذراعهم بذلك، فالفقر هو العنصر الرئيس الذي يسوقهم إلىٰ التمرد علىٰ القبائل، وإقامة بعملية النهب والسلب لكسب معيشتهم معتمدين علىٰ قوتهم، وهم يصارعون الفقر بكل الوسائل حتىٰ بذل حياتهم، وأبرز من عناء الفقر يتمثل في جوع البطن ونحول الجسم والهزال فليس من الصعب أن نجد صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسي الذي يتعرضون له دومًا حتىٰ تعودوا عليه ولديهم طرق معينة لمقاومته بها.

الجوع:

كان السليك بن السلكة مسكه الجوع الشديد في الصيف، وهذا الجوع المتكرر يجعله شعوراً بدوران، حين يقف يظلم البصر:

وَما نِلتُها حَتّىٰ تَصَعلَكتُ حِقبَةً... وَكِدتُ لأَسبابِ المَنيَّةِ أُعرَفُ

وَحَتّىٰ رَأَيتُ الجُوعَ بِالصَيفِ ضَرَّني ... إِذا قُمتُ تَغشاني ظِلالٌ فَأُسدِفُ

والجوع في حياتهم ليس حالة عارضة إنما هو يلازمهم دائمًا، فهم يعالجونه بقوة الإرادة والصبر الشديد، من ذلك ما حدثنا به الشنفرىٰ في معالجة الجوع:

أديمُ مِطال الجوع حَتَّىٰ أميتَه... وَأَضْرِبُ عَنهُ الذِكرَ صَفحًا فأذهَلُ

وَأستَفُ تُربَ الأرض كيلا يرىٰ له ... عَليَّ مِنَ الطول امرؤ مُتَطَوِّلُ

نحول الجسم:

يصف الشنفرىٰ جسمه بكعب القدم حين ينام لا يبلغ الأرض بأن عظمه بارز يحول بينه وبين الأرض، وهو يتوسد ذراعه الجاف بدون لحم كأنها قطعة حديد فقال:

وَآلَفَ وَجهَ الأَرضِ عِندَ افتِراشِها... بِأَهدَأَ تُنبيهِ سَناسِنُ قُحَّلُ

وَأَعدِلُ مَنحوضاً كَأَنَّ فُصوصَهُ... كِعابٌ دَحاها لاعِبٌ فَهيَ مُثَّلُ

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه:

ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به... خصاصة جسم، وهو طيان ماجد

وإني امرؤ عافي إنائي شركة... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

أقسم جسمي في جسوم كثيرة... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وكان يمكن أن يعيش في رغدة ويغذي جسمه بأغذية كافية ولكنه أثر رغدة شخصية أن يقسم الغنيمة إلىٰ الذين يجود عليهم ويشارك معهم في رزقه.

وصف الهموم [1]

إن الهموم موضوع انفرد بها شعر الصعاليك، حين نقرأ شعر الصعاليك نحس أن الهموم كانت جانبا من الجوانب القاسية في حياة التصلعك التي يعانوها ويصارعوها، وهي ليست مجرد انعكاس تجربتهم الحقيقية في كل ما يعانونه فقط بل أيضـــا تجربة نفسية تجيش في صدورهم، ليكون شعرا مطابقا كل المطابقة لصورته في نفوسهم.

(1) نفس المرجع صـ 382

يصف لنا الشنفرىٰ همومه وثقلها علىٰ نفسه بأن هجومها أقوىٰ من إغارة أعدائه، وهي مثل الحمىٰ تأخذه دومـًا، عندما غلب عليها فترجع إليه مرة ثانية:

وَإِلَّفُ هُمُومٍ مَا تَزَالُ تَعُودُه... عِيَادًا كَحُمَّىٰ الرَّبْعِ أَوْ هِيَ أَثْقَلُ

إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُ ثُمَّ إِنَّها... تثوبُ فتأتَّىٰ مِنْ نُحَيْتٍ وَمِنْ عَلُ

ما أكثر دقة هذا الوصف عن الهموم، وما أبلغ التعبير في الألفاظ الموحية، من أمثلتها (ألف) يوحي إلىٰ تعوده علىٰ الهموم، وما تزال يوحي إلىٰ توارد الهموم عليه باستمرار، (وإذا وردت أصدرتها) يوحي بصراعه العنيف مع الهموم، (ومن تحيت ومن عل) يوحي بأن الهموم كالجبال لفته من كل نواحي، فالصورة كلها تمتاز بإيحاء خاص، وهذا يدل علىٰ " أن الشنفرىٰ لم يكن متخيلا ولا متلكفا في صورته هذه عن الهموم، وإنما كان معبرا عن واقع يحسه ويعاني منه"

ويوضح قيس بن الحدادية عن الهموم التي تعانيه مترددة، وينتج عن ذلك أن يلجأ إلىٰ صراع عنيف مع الأعداء:

وبُدِّلت من جدوالكِ يا أُمَّ مالك... طوارق هم يحتضزن وســـــاديـا

واصبحت بعد الأنس لابس جُنَّة... أساقي الكماة الدارعيين العَواليا

المبحث الثاني: الظواهر الفنية
في شعر الصعاليك (خصائص شعر الصعاليك)

إن شعر الصعاليك بخروجه عن النمط المألوف للقصائد الجاهلية فينفرد بميزات يخلو الشعر الجاهلي منها،" شكلت حركة الصعاليك الشعرية أول حركة تمرد في تاريخ الشعر العربي؛ إذ شق هؤلاء الصعاليك عصا الطاعة وخرجوا علىٰ الإجماع الشعر الجاهلي"[1] فيمكن تلخيص سماته الفنية إلىٰ الآتي:

شعر المقطوعات

حين ننظر في شعر الصعاليك الذي بين أيدينا من الزاوية التي تظهر علىٰ بنائه الخارجي، فأول ما يلفت نظرنا فيه أنه شعر مقطوعات. ولسنا نعني بهذا انعدام القصيدة فيه، وإنما نعني ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة.

وإذا استثنينا تائية الشنفرىٰ المفضلية ذات الأبيات الأربعة والثلاثين في بعض المصادر، والخمسة والثلاثين في بعض المصادر الأخرىٰ، ولامية عمرو ذي الكلب الهذلي ذات الثلاثين بيتا، ورائية عروة بن الورد المشهورة. وفائة صخرة الغي الهذلي، وكل منهما في سبعة وعشرين بيتا، ثم تلك الأبيات المفرقة لتأبط شرا في رثاء الشنفرىٰ التي جمعها ناشر ديوان الشنفرىٰ وتألفت منها قصيدة في سبعة وعشرين بيتا، وقافية تأبط شرا المفضلية ذات الأبيات الستة والعشرين، وبائية الأعلم، وميمية أبي خراش، وكلتاهما في أربعة وعشرين بيتا، ودالية صخر الغي ذات الأبيات الثلاثة والعشرين، إذا استثنينا هذه القصائد التسع، واستثنينا معها تلك المجموعة القليلة من القصائد الطويلة التي قيلت في أغراض عامة، والتي أخرجناها في الفصل السابق من دائرة شعر

(1) المرجع السابق صـ 385 مقلًا من كتاب الوتر والعازفون (قراءات في الشعر العربي الحديث)، حلمي سالم، صـ 12

التصعلك، فإننا نجد أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات التي يتراوح عدد أبيات الواحدة منها بين البيتين والسبعة، وأمام مجموعة أخرىٰ من القصائد القصيرة التي توشك أن تكون مقطوعات لا تتجاوز أطوالها[1]

ويستطرد الدكتور يوسف خليف قائلًا: وهنا نقف لنتساءل: ما السر في هذا؟

نحن بين أمرين: إما أن نفترض أن مجموعة شعر الصعاليك التي بين أيدينا ناقصة لا من حيث عدد قصائده ومقطوعاتها فحسب، ولكن من حيث عدد أبياتها أيضا. وهو فرض له إغراؤه لأنه مريح من ناحية، ولأنه يتفق مع ما يذكره مؤرخو الأدب العربي من ضياع أكثر الشعر الجاهلي من ناحية ثانية، ولأنه -من ناحية ثالثة- مقبول في مثل حالة الشعراء الصعاليك الذين رأينا أن قبائلهم لم تكن تحرص علىٰ شعرهم، وحتىٰ لو حرصت عليه فليست السبيل إليه ميسرة لهم.

وإما أن نقبل الحقيقة الماثلة أمامنا وهي أن مجموعة شعر الصعاليك -في مجموعها- مقطوعات قصيرة، ثم نتلمس العلة في ذلك. والعلة عندي هي طبيعة حياتهم نفسها، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويله وتجويده، وإعادة النظر فيه، كما كان يفعل الشعراء القبليون، تلك الطائفة "الأرستقراطية" التي فرغت للفن تلك فراغا هيأته لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها. وإلا فما معنىٰ تلك الفرحة التي كانت تعم أفراد القبيلة جميعا حين ينبغ فيها شاعر إن لم تعمل القبيلة علىٰ الاستفادة من شاعرها وتهيئ له أو -بتعبير أدق- لها سبيل هذه الاستفادة؟

وهل نتصور مثلا أن يفرغ الشاعر الصعلوك لفنه كما كان يفرغ زهير لحولياته، أو أمرؤ القيس في حياته اللاهية الفارغة المطمئنة التي ضمن له رغدها ملك أبيه، أو النابغة في حياته المستقرة في بلاط المناذرة والغساسنة؟ الأمر الذي لا شك فيه هو أن حياة الصعاليك كانت حياة قلقة

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د.يوسف خليف» (ص259-260)

مضطربة، وأنهم جميعا كانوا يشعرون شعورا عميقا بأنها حياة قصيرة، وبأنهم دائما علىٰ موعد مع الموت الذي يترصدهم ترصد الموتور، حتىٰ كثر ذكر الموت عندهم، وتردد الحديث عنه في شعرهم، صدىٰ لما كان يجيش في نفوسهم من إحساس عميق بقصر حياتهم، وهل نظن شاعرا هذه طبيعة حياته يستطيع أن يفرغ لفنه يطيله ويجوده ويعيد النظر فيه المرة بعد المرة؟ أظن أن الطبيعي أن مثل هذه الحياة التي لا يكاد الشاعر يفرغ فيها لنفسه لا تنتج إلا لونا من الفن السريع الذي يسجل فيه الشاعر ما يضطرب في نفسه في مقطوعات قصير وموجزة، يسرع بعدها إلىٰ كفاحه الذي لا ينظره ولا يمهله. أما تلك القصائد الطويلة القليلة فهي أصداء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستريحون فيها من الكفاح في سبيل العيش، فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسبها العميقة فنا متأنيا مطمئنا مطولا مجودا رائعا ممتازا.

أما أنا فأميل كل الميل إلىٰ هذا الرأي الثاني الذي يفسر الحقيقة الماثلة أمامنا تفسيرا واقعيا دون أن يتكلف في سبيل إنكارها الفروض النظرية التي إن جاز قبولها جاز رفضها[1]

الوحدة الموضوعية:

وإذ انتهينا إلىٰ تسجيل هذه الظاهرة ننتقل إلىٰ تسجيل ظاهرة أخرىٰ تتصل بها، وهي ظاهرة "الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك". فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده، بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنوانا خاصا بها، دالا علىٰ موضوعها. وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه، تلك القصائد التي تبدأ عادة بمقدمة طللية، ثم تظل تنتقل من موضوع إلىٰ موضوع حتىٰ تصل إلىٰ نهايتها، حتىٰ لتصبح براعة الانتقال من المقاييس الفنية المعترف بها عند نقاد الشعر العربي القدماء.

---

(1) المرجع السابق (ص261-262)

ونستطيع أن نمضي مع مجموعة شعر الصعاليك فلا نكاد نخطئ الوحدة الموضوعية في كل مقطوعاتها وأكثر قصائدها، سواء ما كان منها في وصف المغامرات أو الحديث عن سرعة العدو أو الفرار أو تقرير فكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك التي عرضنا لها في الفصل السابق، ولا نكاد نجد صعوبة في وضع العناوين المختلفة لها، المعبرة عنها، الدالة علىٰ موضوعاتها، فمثلا بائية الشنفرىٰ "غارة علىٰ العوص"، ورائية تأبط شرا "احتيال"، وفائية السليك "والعاشية المذعورة"، وبائية حاجز "نجاة"، ورائيته "فرار"، ورائية أبي الطمحان"حنين"، وكافية تأبط شرا "الصديق الصعلوك"، ورائية الشنفرىٰ التي أنشدها قبيل مقتله "نهاية الصعلوك" أو "وصية الصعلوك" أو "وليمة الضبع"، ورائيته التي أنشدها فيما كان يطالب به بني سلامان "تهديد"، وفائية الأعلم "الأرستقراطي الهلوع"، وضادية أبي خراش "فرحة وأحزان"، وبائيته "رقيق المرقبة"، وفائية عروة "طواف الاستقرار" ورائيته "الفقير والغني"، ولاميته "تراث الصعلوك"، وهكذا نستطيع أن نفعل بسائر مقطوعات شعر الصعاليك وقصائده القصيرة دون أن نشعر بأي تفاوت بينها وبين عناوينها.

ونتساءل: ما موقف القصائد الطويلة في مجموعة شعر الصعاليك من هذه الظاهرة؟ وهل استجابت لها كما استجابت المقطوعات والقصائد القصيرة؟

الأمر الذي لا شك فيه والذي يلاحظه كل ناظر في هذه القصائد الطويلة أول ما يلاحظ، أنها لم تقف عند غرض واحد، بل تناولت طائفة متعددة من الأغراض، ولكن أيخرج بها هذا عن الوحدة الموضوعة أم لا يخرج؟ هذه هي المسألة[1]

ويقول أيضا الدكتور يوسف خليف:الذي يبدو لي تفسيرا لهذا أنه تقليد للشعر القبلي الذي كان مسيطرا علىٰ الحياة الفنية في المجتمع الجاهلي، وهذا التقليد ليس من الصعب أن نتصوره

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» (ص265-266)

فأظن أنه ليس من اليسير أن نتصور أن الشعراء الصعاليك -برغم ما كان بينهم وبين مجتمعهم من نفور- قد بعدوا كل البعد عن الحياة الفنية في مجتمعهم أو نفروا كل النفور منها، وإنما المعقول أن نتصور أنهم كانوا أحيانا يحاولون تقليد تلك النماذج الفنية التي كان مجتمعهم يقدرها كل التقدير، لعلهم يظفرون بنوع من تقدير المجتمع لهم، ولو تقديرا فنيا، بعد أن يئسوا من تقديره لهم تقديرا اجتماعيا. ولن يضيرهم أن يقلدوا أحيانا تلك النماذج الفنية من الشعر القبلي في صورتها الشكلية، فلن يغير هذا شيئا من طبيعة حياتهم الاجتماعية المتمردة علىٰ القبيلة، ولن يغير كثيرا من تقاليدهم الفنية الأساسية.

وعلىٰ كل حال فهذه الظاهرة، ظاهرة تقليد الشعراء الصعاليك للشعر القبلي في صورته الشكلية، ظاهرة قليلة الذيوع في مطولات شعر الصعاليك، ومنعدمة تماما في مقطوعاته، فليست من الخطر في شيء علىٰ فكرتنا التي نقررها، فكرة "الوحدة الموضوعية في شعر الصعاليك" [1]

التخلص من المقدمات الطللية [2]:

إذا استثنينا هذه المجموعة التقليدية من شعر الصعاليك فإننا نصل إلىٰ تسجيل ظاهرة ثالثة، وهي ظاهرة "التخلص من المقدمات الطليلة". وهذا طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون علىٰ الوحدة الموضوعية في شعرهم؛ إذ إن المقدمات الطللية تخل -بطبيعة الحال- بهذه الوحدة الموضوعية. وفيما عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها لا نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك علىٰ مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهبا آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات، وهي مذهب جعلوا محوره "حواء الخالدة" أيضا، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبكي

(1) «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» (ص267)

(2) انظر المرجع السابق صـ 268-274

أيامه معها، ويقف علىٰ أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلىٰ الوقوف معه، ولكنها المرأة المحبة الحريصة علىٰ فارسها، التي تدعوه دائما إلىٰ المحافظة علىٰ حياته، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي. وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للأنثىٰ الضعيفة التي يظهر صاحبها إلىٰ جوارها بطلا قويا مستهينا بحياته من أجل فكرته، يرفض نصيحتها في رفق وأدب، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق بنفسه، المعتد بشخصيته، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه، وسلامة مذهبه في الحياة. والبراعة هنا ترجع إلىٰ وضع صورتين متقابلتين في معرض واحد مما يترتب عليه وضوح الألوان الفنية في كلتيهما، وهو وضع يذكرنا بما نعرفه من آداب فرسان أوربا في العصور الوسطىٰ، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخر حياته بين يديها. ومن هنا نستطيع أن نطلق علىٰ هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك "مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك" في مقابل "المقدمات الطليلة في الشعر القبلي"

وقد رأينا الشنفرىٰ في قصيدته البائية التي جعلنا عنوانها "غارة علىٰ العوص" يستهلها بحديث إلىٰ صاحبته بأن تتركه وشأنه الذي هو ماض إليه، ولا تثبط عزيمته، ولتقل بعد مضية ما تشاء، فكل ما يعرفه هو أنه لن يموت إلا مرة واحدة.

ويستهل عمرو بن براقة قصيدته الميمية بحديث بينه وبين صاحبته، تنصحه فيه بألا يعرض نفسه للمخاطر، وأن يجعل ليله سباتا يستريح فيه، ولكنه يعجب من هذه النصيحة فكيف ينام الليل من وهب حياته للبطولة والمغامرة؟ ألم تعلم بأنه أحد أفراد طائفة الصعاليك الذين لا ينامون من الليل إلا قليلا؟ وهل تريد منه أن يكون كأولئك الخليين المسالمين الذين ينامون الليل كله؟

تقول سليمىٰ لا تعرض لتلفة ... وليلك عن ليل الصعاليك نائم

وكيف ينام الليل من جل ماله ... حسام كلون الملح أبيض صارم

غموض إذا عض الكريهة لم يدع ... ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم

له طمعا، وطوع اليمين ملازم ... قليل إذا نام الخلي والمسالم

عدم الحرص على التصريع [1] [عدم التكلف]:

وتتصل بهذه الظاهرة ظاهرة رابعة من حيث البناء الخارجي لشعر الصعاليك، وهي عدم الحرص علىٰ التصريع في مطالع نماذجه الفنية. وقد كان يخيل إلي في أول الأمر أن هذه الظاهرة قد تكون خاصة بمجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة دون سائر شعر الصعاليك، أو بالمقطوعات منه بالذات، أو بالقصائد ذات الوحدة الموضوعية، ولكني حين استعرضت مجموعة شعر الصعاليك كلها رأيت أن هذه الظاهرة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه داخل دائرة الصعلكة وما كان خارجها، وسواء ما كان مقطوعات أو قصائد، وسواء ما كان خاضعا للوحدة الموضوعية أو خارجا عليها، وأقول "توشك" لوجود مجموعة من نماذجه الفنية يظهر التصريع في مطالعها، وهي مجموعة -وإن تكن قليلة- تحول دون إطلاق الحكم علىٰ كل شعر الصعاليك. ولكن الشيء الذي نحرص علىٰ تسجيله هو أن هذه الظاهرة لا تختص بمجموعة خاصة من شعر الصعاليك دون مجموعة، ولو أنها كانت مختصة بمجموعة دون مجموعة لالتمسنا تعليلها في خصائص المجموعة التي تختص بها، ولكن انتشارها بهذه الصورة "اللاقاعدية" تجعلنا نلتمس لها تعليلا آخر. وتعليلها عندي يرجع إلىٰ تلك الحرية التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم، تلك الثورة وتلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية، فكان شعرهم ثائرا علىٰ الأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي، حرا في أوضاعه الفنية. ولكنا قلنا إن الشعراء الصعاليك لم ينجوا في بعض

(1) المرجع السابق صـ 274-276

الأحيان من التقليد الفني للشعر الجاهلي القبلي، ومن هنا نجد تلك المطالع المصرعة في بعض نماذجهم الفنية.

واستعراضنا لمجموعة شعر الصعاليك يظهرنا علىٰ طائفة من الملاحظات الطريفة:

فكل شعر أبي خراش بدون استثناء قد تخلص من التصريع تخلصا تاما. وكل شعر الأعلم بدون استثناء أيضا قد تخلص من التصريع تخلصا تاما. وكل شعر عمرو بن ذي الكلب، إذا أخذنا برواية الأصمعي في لاميته التي عرضنا لها منذ قليل، قد تخلص أيضا من التصريع تخلصا تاما.

وكل شعر الشنفرىٰ ما عدا تائيته المفضلية، وكل شعر تأبط شرا ما عدا قافيته المفضلية، وكل شعر عروة بن الورد ما عدا رائيتين له، وكل شعر صخر الغي ما عدا داليته، وميميته التي قالها في رثاء ابنه قد تخلص من التصريع.

وكل شعر السليك، ما عدا مقطوعة واحدة في بيتين اثنين قد تخلص أيضا من التصريع.

وكل شعر أبي الطمحان، ما عدا مقطوعتين إحداهما في المدح فمن الطبيعي أن يلبس الشاعر فيها "الثياب الرسمية" التي يلبسها الشعراء المادحون حين يدخلون علىٰ من يمدحون، كل شعره ما عدا هاتين المقطوعتين قد خلا من التصريع.

وكل شعر حاجز، ما عدا ثلاث قطع إحداها يفتخر فيها بقومه، قد خلا من التصريع.

وحين ننظر في هذه الملاحظات فإننا نقف متسائلين أمام ظاهرة غريبة وهي انتشار التصريع - انتشارا نسبيا طبعا- في مقطوعات شعر الصعاليك وبخاصة عند حاجز. وقد يكون من المفهوم أن ينشر التصريع في القصائد الطويلة التي يحتفل لها الشاعر احتفالا فنيا خاصا، أما أن ينتشر في المقطوعات القصيرة السريعة كما رأينا في مقطوعة السليك ذات البيتين، فهنا وجه الغرابة.

لست أرىٰ تعليلا قويا لهذه الظاهرة الغريبة إلا أحد احتمالين: إما أن يكون هذا التصريع قد جاء عفوا دون أن يقصد إليه الشعراء الصعاليك قصدا، وهو احتمال مقبول، وإما أن تكون هذه المقطوعات، بخاصة التي قيلت في موضوعات خارج دائرة الصعلكة، أجزاء من قصائد طويلة لم

تصل إلينا كاملة احتفل لها أصحابها احتفالا فنيا خاصا فصرعوا في مطالعها، وهو احتمال مقبول أيضا

التحلل من الشخصية القبلية

ومن الطبيعي ألا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبلية، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعيا فمن الطبيعي أن تنقطع فنيا، ونعني بانقطاعها فنيا تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك "العقد الفني" الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته، فلا يكون الشاعر الصعلوك "لسان عشيرته" لأن ما بينه وبين عشيرته قد انقطع، ولا يكون شعره "صحيفة قبيلته" لأنه لم تعد له قبيلة، وإنما يصح شعره صورة صادقة كل الصدق من حياته هو، يسجل فيه كل ما يدور فيها، ويصبح ضمير الفرد "أنا" أداة التعبير فيه بدلا من ضمير الجماعة "نحن" الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي، وتصبح المادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته. ومعنىٰ هذا أن ظاهرة الفناء الفني لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته التي نلاحظها بوضوح عند أصحاب المذهب القبلي في الشعر الجاهلي قد اختفت من مجموعة الشعر داخل دائرة الصعلكة. وحلت محلها ظاهرة أخرىٰ يصح أن نطلق عليها "ظاهرة الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك".

ولكن شخصية الشاعر الصعلوك شخصية يشاركه فيها أفراد جماعته؛ لأنهم جميعا يؤمنون بمذهب واحد، ويدينون بعصبية مذهبية واحدة. ومن هنا كانت شخصية الشاعر الصعلوك شخصية "جماعية"، ولسنا نقصد بالجماعية فناء الشاعر الصعلوك في جماعته فناء يشبه فناء الشاعر القبلي في قبيلته، وإنما نقصد بها ذلك التشابه في الشخصيات بين أفراد جماعة الصعاليك. ومع ذلك فليس من اليسير أن نتصور جماعة الصعاليك قد تشابهت شخصياتها حتىٰ أصبحت

شخصية واحدة، فإن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية، واعتزاز بمقدرة الفرد علىٰ الوقوف في وجه المجتمع [1]

وتعرض الدكتور يوسف خليف الي خصائص أخري مثل (القصصية، والواقعية، والسرعة الفنية) في كتابه الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي من (صـ 278-307)، ولولا الخوف من الإطالة لذكرت نبذه عنهم ولكن وضعت بين يديك المرجع الاساسي لتلك الخصائص، ثم عرض الدكتور في نفس امرجع الخصائص اللغوية والعروضية لشعر الصعاليك

(1) المرجع السابق (ص276-277)

المبحث الثالث: أشهر شعراء الصعاليك

المسألة الأولي: ترجمة عروة بن الورد[1](توفي نحو 30 ق ه = نحو 594 م)

شاعر جاهلي فارس جواد مشهور:عروة بن الورد بن زيد العبسي، شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدّمين الأجواد.

كان يلقب بعروة الصعاليك وسبب ذلك لجمعه إيّاهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزىٰ، وقيل: بل لقّب عروة الصّعاليك لقوله:

لحىٰ اللّه صعلوكا إذا جنّ ليله... مصافي المشاش آلفا كلّ مجزر

يعدّ الغنىٰ من دهره كلّ ليلة... أصاب قراها من صديق ميسّر

وللّه صعلوك صفيحة وجهه... كضوء شهاب القابس المتنوّر

ومن بقية الصعاليك "الشنفرىٰ" و"تأبط شرًّا"، غير أن أعرفهم وأشهرهم وحامل لواء الصعلكة فيهم، هو "عروة بن الورد" الذي نصب نفسه سيدًا علىٰ الصعاليك. فكان يجمعهم ويشركهم فيما يغنمه ويرزقهم من رزقه، ويبذل جهده لمواساتهم، فاجتمع حوله صعاليك "عبس"، وهو منهم واتخذ لهم حظائر آووا إليها؛ ولهذا نعت بـ"عروة الصعاليك"[2]

---

(1) راجع ترجمته وقصة حياته من كتاب: الأغاني ،علي بن الحسين، أبو الفرج الأصبهاني (المتوفىٰ: 356 هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت،الطبعة الأولىٰ 1415 ه(صـ 3/ 52 وما بعدها) ، وكتاب الأعلام ، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر مايو ٢٠٠٢م (صـ 4/ 227)

(2)المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)، الناشر:دار الساقي، الطبعة 4/ ١٤٢٢ه-٢٠٠١م ص(7/ 412)

المسألة الثانية:ترجمة الشَّنفَرَى [1] تُوفي نحو (70 ق.ه) = (525 م)

هو ثابت بن أوس الأزدي الملقب بالشنفرىٰ، من قحطان، شاعر جاهلي، يماني، وقيل بل الشنفرىٰ اسمه ومعناه العظيم الشفتين نشأ في قومه الأزد ثم غاظوه فهجرهم، وقيل اسمه عمرو بن مالك الأزدي وليس ثابت، وقيل غير ذلك.

وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم، قتله بنو سلامان، وكان قد أقسم أن يقتل مائة منهم، وبعد أن قتل تسعة وتسعين وقُتل الشّنفري وطُرِح رأسه [2] مرّ به رجل منهم فضرب جمجمة الشنفري بقدمه، فعقرت قدمه فمات منها، فتمّت به المائة.

والشنفري مغامراته في البادية تفوق حد الخيال ويختلط فيها التاريخ بالأسطورة.

وكان من فتاك العرب وعدّائيهم، وقيست قفزاته ليلة مقتله، فكانت الواحدة منها قريبا من عشرين خطوة، وفي الأمثال (أعدىٰ من الشنفري) [1]

---

(1) راجع ترجمته وقصة حياته من كتاب: الأغاني للأصفهاني صـ (21/ 118 وما بعدها)، وكتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب عبد القادر البغدادي (ت١٠٩٣ه) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م صـ (3/ 344)، الأعلام للزركلي (صـ 5/ 85)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (صـ 18/ 203)، المفضليات، المفضل الضبي (ت نحو ١٦٨هـ)،تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة (صـ 108)

(2) فائدة: طرح بالتذكير علي غير عادة الناس التي تؤنث الرأس، والرأس مذكر في اللغة قال تعالي **سمح**وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا **سجى**[مريم:4]، انظر المذكر والمؤنث لأبي بكر ابن الأنباري ت: محمد عبد الخالق عضيمة، مراجعة: د. رمضان عبد التواب، الناشر: جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، سنة النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م (صـ 1/ 330)

والشنفري من الشعراء الصعاليك وهو ابن أخت الشاعر تأبط شراً [2]

وهو صاحب (لامية العرب) نموذج لوصف الفارس العربي، تعلم الناس مكارم الأخلاق التي مطلعها:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ= فَإِنِّي إِلىٰ قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

المسألة الثالثة ترجمة تأبط شرًا [3] (توفي نحو 80 ق هـ = نحو 540 م)

هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي بن كعب بن حزن. وقيل: حرب بن تميم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار.

وأمّه امرأة يقال لها: أميمة، يقال: إنها من بني القين بطن من، فهم ولدت خمسة نفر: تأبط شرا، وريش بلغب، وريش نسر، وكعب جدر، ولا بواكي له، وقيل: إنها ولدت سادسا اسمه عمرو.

وتأبط شرا لقب لقّب به، ذكر الرواة

- أنه كان رأىٰ كبشا في الصحراء، فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحيّ ثقل عليه الكبش، فلم يقلّه فرمىٰ به فإذا هو الغول، فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شرّا فسمّي بذلك.
- وقيل: بل قالت له أمه: كل إخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها: سآتيك الليلة بشيء، ومضىٰ فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه، فلما راح أتىٰ بهن في جراب متأبّطا

---

(1) مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني(ت ٥١٨ه)، ت:محمد محيىٰ الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة - بيروت (صـ 2/ 48)

(2) خزانة الأدب (8/ 356)، وقاله أيضاً محققو المفضليات صـ 108، انظر ترجمة تأبط شراً ففيها تعليق مهم .

(3) راجع ترجمته وقصة حياته من كتاب: الأغاني للأصفهاني صـ (21/ 86 وما بعدها)، وكتاب خزانة الأدب للبغدادي (صـ 1/ 137 وما بعدها) ، وكتاب المفصل فىٰ تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي (صـ 12/ 288) ، وكتاب الأعلام للزركلي (صـ 2/ 97)

له، فألقاه بين يديها، ففتحته، فتساعين في بيتها، فوثبت، وخرجت، فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاع في جراب، قلن: وكيف حملها؟ قالت: تأبّطها، قلن: لقد تأبط شرا، فلزمه تأبط شرا.

- وقيل أنّ أمّه قالت له في زمن الكمأة: ألا ترىٰ غلمان الحي يجتنون لأهليهم الكمأة، فيروحون بها؟ فقال أعطيني جرابك، حتىٰ أجتني لك فيه، فأعطته، فملأه لها أفاعي، وذكر باقي الخبر مثل ما تقدم.
- والرابع وَهُوَ الْمَشْهُور أَنه تأبط سَيْفا وَخرج فَقيل لأمه أَيْن هُوَ فَقَالَت لَا أَدْرِي تأبط شرا وَخرج أهـ

ومن ذكر أنه إنما جاءها بالغول يحتج بكثرة أشعاره في هذا المعنىٰ،فإنه يصف لقاءه إيّاها في شعره كثيرا، فمن ذلك قوله:

فأصبحت الغول لي جارة... فيا جارتا لك ما أهولا

فطالبتها بضعها فالتوت... عليّ وحاولت أن أفعلا

فمن كان يسأل عن جارتي... فإنّ لها باللّوىٰ منزلا

الخاتمة

تسلط هذا البحث علىٰ دراسة الصعاليك وأغراضهم الشعرية وخصائصهم، حيث جاء بالتمهيد التعريف علىٰ مفهوم الصعلكة وطوائف الصعاليك، ثم جاء موضوع البحث عن أغراض شعر الصعاليك وخصائصهم الشائعة في شعرهم، ثم عرض ترجمة مختصرة لأهم ثلاث شعراء للصعاليك (عروة بن الورد، الشنفرىٰ، وتأبط شرًا)

قائمة المراجع والمصادر

1) الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، ت: أحمد محمد شاكر،دار المعارف- القاهرة
2) فيض الخاطر لأحمد أمين، الناشر: مؤسسة هنداوي
3) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د.يوسف خليف، دار المعارف، الطبعة الخامسة 2019م
4) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، د.عبد الحليم حنفي، مطبوعات الهيئة العامة المصرية للكتاب
5) في تاريخ الأدب الجاهلي، د.علي الجندي، الناشر: مكتبة دار التراث الطبعة: الأولىٰ
6) لسان العرب محمد بن مكرم أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، الحواشي:لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ه
7) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د.شوقي ضيف، دار المعارف مصر الطبعة: الأولىٰ، ١٩٦٠ – ١٩٩٥م

8) ديوان الشنفرىٰ، جمع طلال حرب، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولىٰ 1996م

9) الأغاني،علي بن الحسين، أبو الفرج الأصبهاني (المتوفىٰ: 356 هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولىٰ 1415 ه

10) الأعلام، خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦ هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر مايو ٢٠٠٢م

11) المفصل فىٰ تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي (ت ١٤٠٨هـ)، الناشر:دار الساقي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢ه-٢٠٠١م

12) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب عبد القادر البغدادي (ت١٠٩٣ه)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

13) المفضليات، المفضل الضبي (ت نحو ١٦٨هـ)،تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة

14) المذكر والمؤنث لأبي بكر ابن الأنباري ت: محمد عبد الخالق عضيمة، مراجعة: د. رمضان عبد التواب، الناشر: جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، سنة النشر: ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

15) مجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني(ت ٥١٨ه)، ت:محمد محيىٰ الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة - بيروت

16) بحث بعنوان (شعر الصعاليك أغراضه وخصائصه) للباحث ليو يونق دي نَّشر بالمجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات، المجلد الثالث، العدد الرابع والثلاثون بتاريخ 20 أغسطس 2022 م

فهرس الموضوعات

مقدمة 2
التمهيد 4
المبحث الأول: تعريف الصعلكة 4
المبحث الثاني: طوائف الصعاليك في الجاهلية 6
موضوع البحث 7
المبحث الأول: موضوعات شعر الصعاليك 7
أحاديث المغامرات 7
وصف الأسلحة 9
الحديث عن الرفاق 10
الحديث عن الوحوش 11
الحديث عن الفقر وآثاره 12
آثار الفقر: 14
الجوع: 14
نحول الجسم: 15
وصف الهموم 15
المبحث الثاني: الظواهر الفنية 17
في شعر الصعاليك (خصائص شعر الصعاليك) 17
شعر المقطوعات 17
الوحدة الموضوعية: 19
التخلص من المقدمات الطللية: 21
عدم الحرص على التصريع [عدم التكلف]: 23

التحلل من الشخصية القبلية 26

المبحث الثالث: أشهر شعراء الصعاليك 28

المسألة الأولي: ترجمة عروة بن الورد 28

المسألة الثانية:ترجمة الشَّنْفَرَىٰ 29

المسألة الثالثة ترجمة تأبط شرًا 30

الخاتمة 32

قائمة المراجع والمصادر 32

فهرس الموضوعات 34